المرجعية الاجتماعية للهوية السردية في روايات لطفية الدليمي

The social reference of narrative identity In the novels of Lutfia al-Dulaimi

تمارة رياض ذنون محمد
د. فيصل غازي محمد
أستاذ
جامعة الموصل– كلية التربية للعلوم الإنسانية– قسم اللغة العربية

Tamara Riad Thanoon Mohammed
Dr. Faisal Ghazi M.
Professor
University of Mosul - College of Education for Humanities Sciences - Department of Arabic Language

Tamara_taee@yahoo.com

تاريخ الاستلام ٢٠٢٣/٥/١٦ تاريخ القبول ٢٠٢٣/٦/٥

الكلمات المفتاحية: الهوية، المرجعية الاجتماعية، الروايات، لطفية الدليمي

Keywords: identity, social reference, novels, Lutfia al-Dulaimi

الملخص

تهدف هذه الدراسة الى الكشف عن المرجعيات الاجتماعية في روايات لطفية الدليمي وكيف اسهمت هذه المرجعيات في تأسيس قضية الهوية لمرحلة معينة ، فمرحلة الحروب مثلا لاتتماثل مع زمن السلم ، والشخصية التي تتمتع بخلفية ثقافية او علمية ، ليست مثل الشخصية الجاهلة فكلها تتضافر لتشكل هوية سردية خاصة.

Abstract

This study aims to reveal the social references in Lutfia Al-Dulaimi's novels and how these references contributed to establishing the issue of identity for a certain stage. The stage of war, for example, is not identical to the time of peace, and the character who has a cultural or scientific background is not like the ignorant character, as they all combine to form a special narrative identity.

المقدمة

ان الرواية منظومة سردية يتحكم فيها الخيال بِعدَّها اطارا لمرجعيات متعددة واهمها المرجعيات الاجتماعية ، فهي تلعب دورا هاما في فهم وتطور وتشكيل الهوية لكونها عبارة عن انظمة ثقافية متعددة التي تساهم في العملية التواصلية ،فالمرجعيات الاجتماعية تقضي الى ظهور عوالم متعددة القيم والتصورات والمواقف، وتتمظهر هذه المرجعيات على مستوى الحكاية بمكوناتها السردية ، الشخصيات ، المكان والاحداث، فالذات داخل السرد هي نقطة تائهة في بحر الاسئلة (ماهي ؟ ، لماذا هي؟،كيف هي ؟) وهذه الاسئلة توثق اجوبتها المرجعيات الاجتماعي.

مدخل

الهوية تشبه لوحة من الفسيفساء، لا يمكن أن تتشكل من عنصر واحد ولون واحد؛ لأن الهوية في الأصل كينونة ووجود ومصير للمخلوقات، أما الهوية في البشر فهي تأتي عن طريقين، الأول: داخلي: يتعلق بالشخصية التي يمتلكها الإنسان وعوامل ذاتية أخرى، والثاني: خارجي: وهو كل ما يؤثر في حياة الإنسان من عوامل وأسباب في الغالب هي خارج قدرته وسيطرته من ذلك المجتمع فهو عامل مباشر في تشكيل الهوية، فالإنسان ابن بيئته، وهو انعكاس لصورة البيئة والمجتمع، فـ"علم الاجتماع معني بدراسة الحياة الاجتماعية والجماعات والمجتمعات الإنسانية، إنه مشروع مذهل وشديد التعقيد، لأن موضوعه الأساسي هو سلوكنا ككائنات اجتماعية، ولنا أن نتسأل: كيف وصل عالمنا المعاصر إلى هذه الحال ؟ ولماذا تغيرت واختلفت ظروف حياتنا عما كانت عليه في عهد آبائنا وأجدادنا ؟ وما الوجهة التي سيتخذها في المستقبل؟ هذه هي بعض الأسئلة التي تتخذ مكانة الصدارة في اهتمامات علم الاجتماع"[١]، ولعل السبب الذي يجعل المجتمعات تسير نحو الأسوأ، هو عدم ثقة الشعوب بالسياسات والحكومات المتعاقبة، ومن هذا الباب تدخل زعزعة المواطن على صعيد هويته وانتمائه؛ ذلك نتيجة الصراعات السياسية بين الحكومات وتأثيرها المباشر في المجتمع؛ لذلك برزت الحاجة الملحة إلى الإحساس بالهوية والتشبث بها.

فالمجتمع "جماعة من الأشخاص تربطهم علاقة اجتماعية خاصة ذات صفة دائمة أو مؤقتة، بحيث تفرض على أعضائها نمطاً معيناً في السلوك الجماعي وقد يجتمعون على أساس وجود هدف مشترك أو مصلحة مشتركة بينهم يدافعون عنها بالوسائل المتيسرة لديهم"[٢]. وكذلك يمكن تعريف المجتمع العراقي بأنه "مجموعة من الأفراد تكون في حالة اتصال دائم ولها أهداف ومصالح مشتركة ومصير واحد، وبالاتصال الدائم نعني جميع الروابط والتفاعلات التي تقع بين العراقيين مهما تكن طبيعتها مباشرة أو غير مباشرة، دائمية أو مؤقتة، شعورية أو غير شعورية، تعاونية أو عدائية، إلا أن وحدة الأفراد في جماعات ومنظمات وتكامل الجماعات والمنظمات في تجمع بشري ذي صفة اجتماعية وحضارية معينة يسهم في ظهور المجتمع وبلورة نظمه وأهدافه وخطط عمله، فالمجتمع العراقي يتكون من أفراد ينتمون إلى جماعات بشرية كالأسر والمدارس والوحدات العسكرية والمصانع والمزارع والدوائر

---

(١) علم الاجتماع، أنتوني غدنز، تر: فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، مؤسسة ترجمان، بيروت، ط. ٤. ٢٠٠٥م: ٤٧.

(٢) علم الاجتماع السياسي، أسس وأبعاده، صادق الأسود، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، العراق، د. ط، ١٩٨٦م: ٣٥٥.

البيرو قراطية والنوادي والجمعيات.. الخ"[١] فلماذا تحدثنا عن المجتمع العراقي دون سواه؟ هل هو يختلف عن بقية المجتمعات؟ الجواب: المجتمع العراقي يختلف عن بقية المجتمعات، كما أن المجتمعات في دول العالم تختلف عن بعضها للأسباب الآتية:

١. اللغة[٢]: وهي الأداة المشتركة، وطريقة التفاهم بين أبناء المجتمع.

٢. الدين[٣]: قد لا يتشكل هذا العنصر إلا في بعض المجتمعات.

٣. القومية[٤]: وهي في الغالب عامل مهم في بناء جميع المجتمعات.

٤. السياسة[٥]: هي أمُّ المجتمع وعصب بنيانه سلبا أو إيجابا.

وفي الحقيقة هناك أسباب أخرى تؤثر في نوع المجتمع وشكله بطريقة مباشرة، ولكننا رأينا أن هذه الأسباب هي الأهم، وهي ليست عوامل بناء المجتمع فحسب، بل هي أيضا عوامل بناء الوطن.

ففي العراق مثلا يقوم المجتمع على هذه العناصر أو العوامل أو الأسباب الأربعة، وكل عامل له دور وجانب مهم في تشكيل المجتمع، تعاملت لطفية الدليمي في رواياتها مع نوعين من المجتمع: المجتمع الواقعي، والمجتمع التخييلي.

---

(١) محاضرات عن دراسات في المجتمع العراقي، د. زينب هاشم، الجامعة المستنصرية، كلية التربية الأساسية، قسم الارشاد النفسي والتوجيه التربوي، بغداد، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م: ٥.

(٢) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق: المستشرق الفرنسي: أ.م. كاتر مير، عن طبعة فرنسا، ١٨٥٨، مكتبة لبنان، بيروت، د.ط، د. ت: ٢/ ٥٨٠.

(٣) الدين في المجتمع العربي، مجموعة مؤلفين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، د.ط، ٢٠٠٠م: ١٧.

(٤) دراسات في حضارة الاسلام، هاملتون جب، المحقق: د. احسان عباس، الناشر دار العلم للملايين، بيروت، د. ط، ١٩٧٩م: ٣٥٨.

(٥) المجتمع البشري في الاخلاق والسياسة، برتراند رسل، تر: عبد الكريم أحمد، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، د. ط، د. ت: ١٢.

- المجتمع الواقعي:

المجتمع الواقعي هو تعامل الأفراد والمجموعات بشكل مباشر ويمكن أن نعرفه بأنه المجتمع الذي يبدأ بجماعة صغيرة ثم يتزايد العدد حتى يصل إلى مئات، وألوف، وربما ملايين من البشر، ويعرفه جورج هيللري بأنه "مجموعة من الناس يشتركون في تفاعل اجتماعي وبعض الروابط المشتركة بينهم ويشتركون في مساحة ما على الأقل لبعض الوقت "إذ إنَّ مكونات المجتمع المحلي حسب التعريف هي: الجماعة، التفاعل، الروابط، المكان، والزمان"[١]، ويقوم هذا المجتمع على التفاعلات الواقعية المباشرة، أي: أنه ليس مجتمعا افتراضيا يمكن التعامل من خلاله عن بعد.

- المجتمع التخييلي

المجتمع التخييلي هو مجتمع بشري يفرزه خيال الكاتب لمحاكاة الواقع، بأحداث غير حقيقية، وقد لجأت اليه الكاتبة، عند احساسها بضرورة تقديم نموذج لمجتمع مثالي فيه بعض العبر والدروس لأبناء المجتمع العراقي للاقتداء به[٢].

أ- المجتمع الواقعي:

رصدت الروائية في كتاباتها العديد من الظواهر التي طرأت على المجتمع العراقي، وعرّت السياسات الخاطئة التي مزقت العراق، كما رصدت العوامل الأربعة التي ذكرناها وتأثيرها في المجتمع العراقي.

ففي رواية(خسوف برهان الكتبي)، تنظر إلى مجتمع بغداد، هذه المدينة الذي كانت تضرب بها الأمثال، فلا تجد سوى الفوضى التي سادت هذا المجتمع: "**برهان يتيه في شوارع بغداد التي لا يعرف عنها شيئا منذ غادر شارع المتنبي وضاع: (..) يلاحقه عابرون قساة يحيط بهم شبان شرسون وتمتد أيديهم اليه، يمسكون بمعصميه ويركله أحدهم على بطنه، يتهاوى برهان فيوقفه آخر ويعيد ركله من جديد، تمتد الأيدي إلى جيوبه وتخطف إحدى رزم النقود..**

(١) المجتمع الافتراضي في مقابل المجتمع المحلي الواقعي، أسماء العشاب، دنيا الوطن، https://pulpit.alwatanvoice.com/content/print/183122.html

(٢) ينظر: الجماعات المتخيلة، بندكت أندرسن، تر: ثائر ديب، تقديم: عزمي بشارة، شركة قدمس للنشر والتوزيع، سورية، ط. ١، ٢٠٠٩م: ٢٨.

في منطقة أخرى عدّهُ المشردون واللصوص منافسا لهم في مناطق نفوذهم فطاردوه، لم يكن عدوا مؤكدا فيقضون عليه ولا شبيها بهم فيقبلونه، لذلك سلبوه بعض ما لديه مسن مال حصل عليه من بيع كنوز مكتبته التي نسي أمرها أيضا"(١).

نلاحظ في النص انتشار الفوضى وفقد القيم الأخلاقية، وأصبحت الطبقة الوسطى التي يمثلها (برهان) هي التي تدفع الثمن، وهذا ما فعلته فترة الحرب والحصار في العراق، إذ تمزقت الهوية البغدادية فكأنها حرب لتصفية الطبقة المثقفة، حتى سادت الرموز السلبية في البلد التي لا تعي المعنى الحقيقي للهوية، فالمجتمع هو المنهل الحقيقي التي تنهل منه الهوية كيانها؛ فالمجتمع لما" يقوم به من دور في تنظيم وتفعيل مشاركة الناس في تقرير مصائرهم ومواجهة السياسات التي تؤثر في معيشتهم وتزيد من إفقارهم، وما يقوم به من دور في نشر مبادرة خلق المبادرة الذاتية، ثقافة بناء المؤسسات، ثقافة الإعلاء من شأن المواطن، والتأكيد على إرادة المواطنين في الفعل التاريخي وجذبهم إلى ساحة الفعل التاريخي والمساهمة بفعالية في تحقيق التحولات الكبرى حتى لا تترك حكرا على النخب الحاكمة"(٢).

فالكاتبة تقول كلّ شيء من خلال عصرنة التاريخ عن طريق غوص الشخصية في أعماق التاريخ نحو المجهول دون القدرة على تأكيد مواطنتها وانتمائها وعدم قدرة الشخصية على تخليص نفسها من فقد القيم، فيعد مصير برهان الكتبي أنموذجاً اجتماعياً سائداً، الذي يمثل الطبقة الوسطى من المثقفين، التي أثرت المتغيرات الطارئة على الواقع الاجتماعي في فترة الحصار فيهم سلبا، فعلى لسان برهان:" **ماذا سنأكل في الغد؟ وهذا يعني ماذا سنبيع لنبقى... يراوغه وجه الملك السومري (شولكي)، أتعرف لا تفريط بك...**" (٣).

وتمثل هذه الطبقة حلقة مهمة لتوازن المجتمع، وذلك؛ لأنَّ المجتمع العراقي أصبح مركزا للفقر والبطالة وفقدان الثقة في المجتمع؛ إذ استهدفت منظومة القيم والأخلاق وانسلاخ الفرد عن دولته ومواطنته مجتمعه ومن ثَمَّ عن هويته. فـ (برهان) يمثل الشخصية المثقفة الواعية التي تتمنى أن تتلاشى مع الزمن بين ذاكرة ونسيان وجنون معاش في الواقع بوصفها حالة انهزامية أمام اقتراف الخطيئة مهما كانت الظروف، فكأنه مجبر على هذا الفعل لأسباب اقتصادية وقمع النظام، إذ يلج إلى النسيان؛ لأنه كمجنون يتخلى عن قيمه الأخلاقية، فالذاكرة لعنة تطارده، وينغمس برهان في الخيانة، فيأتي الوصف على هذا النحو" **لا شيء منهما**

---

(١) خسوف برهان الكتبي، لطفية الدليمي، نوفيلا، بغداد، د. ط، ١٩٩٩م: ٥٨- ٥٩.

(٢) الديمقراطية المصرية على مشارف القرن القادم، أحمد ثابت، كتاب المحروسة، مركز المحروسة للبحوث والتدريب، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م: ٢٠.

(٣) خسوف برهان الكُتبي: ٢٣.

سوى ما تؤدي الكلاب السائبة أو الخنازير البرية أو القطط المهتاجة في شباط وهي تتسافد في الطرقات..."(١).

وعلى الرغم من مرارة الجوع وما يترتب عليه لا زالت الشخصية تريد التمسك بوطنيتها وهويتها "أتعرف لا تفريط بك"، فالملك السومري شولكي(*) يمثل الانتماء والتمسك بالهوية.

في رواية (عشاق وفونوغراف وأزمنة) صورتان لمجتمعين مختلفين (المجتمع الباريسي) و(المجتمع العراقي)، فهما ثنائيتا تضاد (بين الجمال والخراب) و(الرفاه والجوع) و(الأمن والحرب)، ونظرا للالتصاق الحميمي للروائية بموطنها على الرغم الحرب والدمار، فإنها تسمي أجمل بلد في العالم" فرنسا" بلاد الغربة، ولكن الألم يعصر فؤادها وهي تستذكر وتقارن بين المجتمعين: "**تتماثل أيام نهى في بلاد الغربة كما تتماثل إعلانات الطرق في شوارع المدن عن بضائع وأدوات وأثاث يحتفي بنساء عاريات مستلقيات تحت الأضواء يعرضن فراشا وثيرا أو نصف عاريات يلحسن أقماع المثلجات أو يروجن لسيارات فارهة بثياب سهرة شفافة، الإعلانات المثيرة هوية مدن تحيا على بحر من الذهب والنقود والمقايضات، تتغاير أيام نهى ما بين أيام الفوضى والقتل والاختطاف والاغتصاب والتعذيب، فلكل من البشر أيامه حسب حظوظه من السياسة والتحضر والاستقرار، الأيام في بلادها لم تعرف الهدوء ولا نعمت بسياسة عاقلة ولا حظيت بالتحضر، أيامهم لعبة قمار يراهنون عليها كل ليلة ويخسرونها كل صباح بمفخخة وحزام ناسف ومن يتبقى منهم تجففه الأحزان كما يجفف القيظ اللافح العشب الطري في ظهيرة آب أو تصيبه الفواجع بصدوع تتهدم معها أعمدة الروح أو تنفطر لها القلوب**"(٢).

نجد في النص السابق أنه يعبر عن الفوضى والقتل والاختطاف والاغتصاب والتعذيب/ بلا تحضر ولا استقرار/ بلا هدوء/ سياسة مجنونة/ أيامهم قمار/ صباحهم مفخخة/ مساؤهم عبوة ناسفة/ تجففهم أحزان/ تتفطر قلوبهم..

---

(١) خسوف برهان الكُتبي: ٧٠.

(*) الملك شولكي: أسس سلالة أور السومرية كان يحكم في مدينة أور السومرية التي كانت مركز عبادة آلهة القمر (نانا)، وكان ملكاً عظيماً سادَ الرخاء والعدل والامن في عصره، أطلق على نفسه ملك الجهات الاربع وعد نفسه الآله الحامي للمملكة بوصفه الوريث الشرعي لاجداده الملوك السومريين الكبار؛ ينظر: ٢٢. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين)، طه باقر، ج١، الوراق للنشر المحدود، بغداد، ط٢، ٢٠١٢، ج١: ٤٢١-٤٢٤.

(٢) عشاق وفونوغراف وأزمنة، رواية، لطفية الدليمي، دار المدى، بغداد، ٢٠١٦م: ٧٦ – ٧٧.

نهى متشظية الذات غير متصالحة مع المكان تعيش بشخصيتين، الأولى: هي إنسانة في داخل غربة جميلة لذيذة خلابة، والثانية: المجتمع العراقي، على الرغم من خرابه ودماره وبشره الذي مزقته السياسات والحروب، لكن من خلال كلامها نصل إلى صورة من صور المجتمع العراقي على حقيقته، ونجد أن الروائية تشير بطرف خفي إلى أن العراقيين الذين تركوا الوطن وهاجروا أو هُجّروا قسرا، قد أضاعوا وطنين ومجتمعين وهويتين(فلاهم غربيون ولا هم شرقيون" عراقيون")، لقد تشتت " الهوية" وضاعت صورها بين مكانين متباعدين فتمزقت وتشوهت أو ضعفت العوامل الأربعة(اللغة/ الدين/ القومية/ السياسة)، والذين غابوا في دهاليز الغربة، ربما حاولوا الاندماج بالمجتمعات التي يعيشون فيها، ولكن كل هذا غير قادر على تغيير" الهوية"، على الرغم من أنه قد يؤثر فيهم سلبا، لكن " الهوية" تبدأ من (مسقط الرأس) ذلك المكان بغداد الذي مارس سياسة النفي والإقصاء القسري، فدوره سلبي على الرغم من افتقاده.

إنَّ هذا التشظي يأتي من التناقض الذي تعيشه الشخصية (نهى) بين مكان الوجود القسري ومكان الانتماء، أينما ذهبت ترى أنها مهمشة، مهمشة في مكان يسوده الأمان، ومهمشةً على أرضية الموت(الوطن) فهنا تحطيم للتاريخ الشخصي واقتلاع من السياق الصيغي للإنسان، وشعوره بالارتياب من محيط مجهول لا يعرفه المنفي، " فالمنفي هو من أقتلع من المكان الذي ولد فيه، وأخفق في مد جسور الاندماج مع المكان الذي اصبح فيه، فحياته متوترة، ومصيره ملتبس. المنفي ذات بشرية واعية لكنها ممزقة، خُربت سويتها الطبيعية فلا سبيل الى اعادة تشكيلها في كينونة منسجمة مع نفسها أو مع العالم" (١)

فإنَّ الشخصية تهجر وطنها لاستحالة العيش فيه، فالوطن فقد قدسيته فهو محفوظ في العقول ومدون في تاريخ المثقفين فحسب، فعندما تفكر الشخصية بالعودة فإنها تعيش الموت والمنفى بشكل آخر في الوطن، وتكتشف أن للوطن طعم المنفى أيضا، إذ إنها لا تجد الوطن نفسه الذي تركته ولا تاريخه الشخصي، فالشخصية ما بين منفى ومنفى، وموت وموت مع اختلاف الفضاءات وخلفيات ذلك الموت، والهوية تصبح على شفا حفرة من الانهيار، تضعف وتتضاءل تدريجيا لكنها مخبأة في الذاكرة والتاريخ لا تموت.

ونلاحظ أيضا في رواية عشاق وفونوغراف وأزمنة مدى تأثير السياسة وبالذات الحكم العثماني على المجتمع العراقي، ولا سيما المرأة. فإذا أردت أن تهدم حضارة أمة فعليك أولاً أن

(١) الكتابة والمنفى، أدونيس وآخرون، تحرير وتقديم: عبدالله إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠١٢: ٧.

تبدأ بهدم الأسرة وأساسها المرأة ثم التعليم ثم تسقيط القدوات من المفكرين والعلماء وهو ما يؤدي بالتالي إلى هدم الهويات.

المرأة في النظام السردي للكاتبة هي نظام الوطن، الإرث، القوة، الانهزام، فمن أجل إيصال المجتمع العراقي لحالة التصدع الاجتماعي دُرست المرأة العراقية من قبل المحتل، وكان التركيز على مكونات ذلك المجتمع الرئيسة، استهداف مدروس ومنظم عبر السنين، ومقاومته غير منظمة، مشوشة، ومتفرقة.

استعرضت الكاتبة في روايتها مدى تأثير التغيرات السياسية على المدى الطويل منذ الحكم العثماني إلى يومنا هذا، الذي أدى إلى تحولات سلوكية للعوائل العراقية على مستوى التركيب الأسري خصوصا والاجتماعي عموما، تدخلنا الكاتبة في نطاق المقارنة والتداخل بين الماضي مع الحاضر فتتحدث عن تاريخ عائلة (الكتبخاني) " **لا يتذكر صبحي سببا واضحا لما أقدم عليه ذلك اليوم، لكنه كان يدرك أن السلطان، مسؤول عن كل شيء في الحياة.. عن ثراء أهله وفقر الآخرين، عن عبودية الخدم، وعن سجن أختيه ومنعهما من الذهاب إلى الكتاب أو المدرسة، وكان يتألم وهو يرى عبيدا يجلدون في بيت عمته آل الخيامي**"[1].

نلاحظ في هذا النص رضوخ العوائل العراقية لسياسة الاحتلال والتعاون معها جعل مصيرها بيد الآخر (المحتل)، حتى وإن كان الأخير ضد أفراد شعبه، وهدفه تمزيق وحدة المجتمع، ونشر التخلف والتمايز الطبقي واقتصار التعليم على الذكور دون الإناث، إذ تنفذ سلطة الاستبداد في داخل الأسرة وخارجها، فهذه العوائل التي ترعي المناصب هي في الحقيقة خادم ذليل يريد أن يحظى برضاهم للحصول على المناصب والمكاسب، وتحت السلطان العثماني عاشت المرأة من فقد حقوقها بالكامل في الحياة، فهي تفعل ما تؤمر، مسيرة غير مخيرة في أبسط حقوقها (التعليم، الزواج)، وإنّ هذه العوائل التي تدعي المناصب والنسب استغلت المرأة أبشع استغلال، تباع وتُشترى للوصول إلى المناصب والسلطة، وهذا ما فعله إسماعيل الكتبخاني مع الجارية (بنفشة) التي اكتشفت بأن التاجر الذي اشتراها بوصفها جارية واستخدمها بوصفها محظية وحملت منه بابن أنْ يقدمها إلى الوالي طمعا في الحصول على مركز مرموق، إذ سجلت هذه الفضيحة بـ فونوغراف " **أنا بنفشة زوجة صبحي الكتبخاني وأم ولده فؤاد فُجعت اليوم بمصيبة... وقعت بين يدي هذا اليوم جريدة... كتبوا تحت الصورة أسماء الرجال الظاهرين فيها وكان معهم التاجر الذي اشتراني وأهداني للوالي... أنجبت له ولدا حرمني منه حال ولادتي... هذا التاجر الذي اشتراني من النخاس هو ذاته إسماعيل بك**

(١) عشاق وفونوغراف وأزمنة: ١٦٠.

الكتبخاني والد زوجي صبحي، فيكون ولدي منه _ لو بقي حيا _ أخا لصبحي، وأخا لولدنا فؤاد "(١).

إنَّ الكاتبة تقدم عرضا لأوجه الصراع الدائر عبر الزمن: عائليا، اجتماعيا، وسياسيا، وكأنها أرادت بذلك أن تبين أن الاستبداد السلطوي السياسي يأتي من الاستبداد الذكوري السلطوي في العائلة، والتذلل للحاكم لإعطائه فرصا أكثر، وما حصل لبنفشه في الماضي البعيد يحصل مع بنفشة في الحاضر والماضي القريب سواء أكانت أعجمية أم عربية أم عراقية، الهدف هدم هوية المرأة وقتل كرامتها، ونلاحظ استمرار هذه العائلة الكتبخاني في المثول والتلون والخضوع من خلال حفيد من أحفاد هذه العائلة (فهمي منصور الكتبخاني) الذي تعاون مع الاحتلال الأمريكي ليكون نائبا " **أسرة عجيبة لها إرث باهض من الشر والدناءات العتيقة وأبناء الزنا، وشهوة السلطة، والمال والجواري المحظيات**"(٢).

فكأن الاحتلال الأمريكي جاء مكملا بشكل أدق لتفاصيل الحكم العثماني على العراق مع اختلاف في التسميات بالتعاون مع عوائل أصحاب مناصب وأنساب ومذاهب دينية، وهذا ما تراه الرواية، واستخدام العنصر المهم والأهم في قتل الهويات وتشظيها في المجتمع العراقي (الدين، اللغة، المرأة، العلم)، وإدخال مصطلحات جديدة للموت وهادمة لهوية المجتمع العراقي.

وفي رواية(سيدات زحل) وهي المثال التطبيقي النموذجي للمرجعية الاجتماعية للهوية، نجد عشرات الحكايات التي تروي مآسٍ ضربت المجتمع العراقي، فزحزحت الوجود الحقيقي لـ (الهوية العراقية)، حتى ليكاد من يقرأ هذه الحكايات العراقية، يقول: إن الهوية الوطنية فقدت ملامحها وقيمتها الإنسانية: "**ظهيرة أحد أيام تموز القائظة اعترض المسلحون سيارة تنقل موظفات البنك، ما بين حي العامرية وحي الخضراء، أنزلوا البنات غير المحجبات، أشهروا سيوفهم، كبروا وبسملوا وقطعوا رؤوس أربعة منهن وألقوا بها على الرصيف واختفوا، بعد أيام أنزلوا القصاص بفتيان يرتدون الشورتات في طريقهم إلى مسبح الحي، قطعوا سيقانهم وتركوهم يصرخون في العراء.....**

هددوني سيقطعون رأسي ويلقونه أمام بيتي، أرجوكن لا تغادرن البيوت، اتركن العمل، لا نريد ميتة شنيعة كهذه.."(٣).

---

(١) عشاق وفونوغراف وأزمنة: ٥٨١.

(٢) المصدر نفسه: ٤٧٦.

(٣) سيدات زحل، لطفية الدليمي، دار المدى، بغداد، ط١، ٢٠١٧م: ١٨١.

ما تقدمه الرواية من أسلوب واقعي يكاد يتفوق على الخيال، إذ يدخل الموت في علاقة جدلية مع الحياة في المجتمع؛ لأن العقل العربي يعتمد ثنائية في الوجود تجسدها اللغة العربية، فنحن نجد في لغتنا ثنائيات لفظية متلازمة لا يُذكر طرفها الأول حتى يتداعى الطرف الآخر إلى الذهن، ومن هذه الثنائيات... الدين والدنيا، الرجل والمرأة... الحياة والموت، وبسبب هذه الثنائيات المتأصلة في الوجدان العربي فإننا لا نفكر في الحياة إلا ويخطر على بالنا الموت(١).

فأصبح الموت والعنف نسقا مهما في المجتمع العراقي بعد حرب ٢٠٠٣م وفضاءً دلاليا لشروخ دينية وسياسية في داخل النسيج الاجتماعي؛ توثيقا للذات المعنفة والمنكوبة وكأنه تصوير مباشر وتقريري ليوميات الموت الاجتماعي وكشف نفسية الإرهابي، فالموت ألقى بظلاله الكابوسية على هذا المجتمع، فهو ببعديه المادي والمعنوي كان سيد الموقف والانكسار تحت مسميات عدة، عصابات تحت غطاءات مذهبية، فالعنف في المجتمع العراقي " ذو أبعاد اجتماعية، بنيوية تتصل بالمستوى الثقافي والفكري للجماعة لا بالأفراد"(٢).

فإن أغلب روايات الدليمي قد أخذت على عاتقها كشف المستور من السياسات، وتعرية النماذج السلبية التي أثرت وشوهت المجتمع العراقي؛ لأنها تعاضدت لتمزيق الهوية العراقية.

فالمجتمع من المفروض أن يكون "مثل الكائن الحي، يولد، وينمو، ويكبر، ويتطور، وقد يموت أو يستمر بشكل آخر"(٣)، فمن المؤكد أن المجتمع العراقي أيام هارون الرشيد ـ مثلا ـ هو ليس المجتمع العراقي في زمننا هذا، مع أن المجتمعين هما عراقيان في الأصل، فكل مجتمع له أسباب وجوده وكينونته وخصوصيته، فمادام المجتمع مثل الكائن الحي، فالهوية هي أيضا تتآزر ويقوى انتماؤها من خلال المجتمع وعلاقته بالسياسة.

وفي رواية (حديقة حياة) ثمة مفارقة غريبة، من خلال محاورة عجيبة بين (حياة) و(والدها)، مفارقة تقول ما معناه إذا انفجر الوضع الأمني في بلد ما، فإن الأثرياء يظهرون بسبب ذلك في بلد آخر: "**إذا تعرضت لكارثة؟ فاعلمي ان أناسا في الجانب الآخر من العالم قد نالوا رفاها أو نالوا ثروة على أنقاض ما فقدت..**

– أكاد لا أفهم.. ما معنى كل هذا؟

---

(١) ينظر: مفاهيم العقل العربي، علي القاسمي، دار الثقافة والنشر والتوزيع، د. مك، د. ط، ٢٠٠٤م: ١٣.

(٢) العنف السياسي في السرد القصصي، عبد جاسم الساعدي، دار فضاءات، عمان، ط١، ٢٠١٣م: ٣٠.

(٣) محاضرات عن دراسات في المجتمع العراقي: ٢٥.

- يحدث الأمر دائما بطريقة معاكسة في طرفي العالم، فما تحرمين منه يناله الآخر حتما..
- لكن ألن يأتي يوم تنتهي به الحروب وتسقط هذه المعادلة..؟
- سيحدث.. ولكن متى؟؟
- أحيانا يظن البشر أن الحروب ماتت إلى الأبد ويتخيلون السلام قد فرد جناحيه على الدنيا، وينسون أن الحرب تختبئ تحت ضحكة الحياة.
- لا تفزعني.. لابد أن تنتهي الحروب في يوم ما.
يحدث عندما يوجد الكثير من أمثالنا..
حين ولدت ميساء، بدأ قصف المدن بالصواريخ كانت الصغيرة تحبو وتتعلم أن تقول كلماتها"[١].

نلاحظ من خلال هذا الحوار بأن النص محمل بأبعاد سياسية وهي الحرب التي الثيمة الأساسية في المجتمع العراقي الواقع تحت لعنة الحرب التي تعد البؤرة الأساسية في روايات لطفية الدليمي، وهي ذات رؤية مغايرة لأسباب الحرب ونتاجها، ونلاحظ في هذا النص ديستوبيا الحرب ويوتوبيا الحب، إذ إنَّ أغلب اعتبارات الحرب سياسية تاريخية لكن أغلب الكتب السياسية جعلت من العنف المنظم والحرب ظاهرة اجتماعية في الأساس؛ لأنها تفرض على الشعوب نمطا اجتماعيا معينا ولها دور فعال في التحولات الاجتماعية، فنحن أمام هاجسين من الطبيعة البشرية وهما هاجسا الخير والشر، فإنَّ مفردة الحرب باتت هاجس هذا المجتمع، وحتى عند الحديث عن الحب ذلك لمقاومة الموت، فالحرب ظاهرة عدوانية قائمة على طبيعة الشر وهي الأقرب إلى الإنسان إذ يقول ابن خلدون:" اعلم إن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض، ويتعصب لكل منها أهل عصبته، فإذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان أحدهما تطلب الانتقام، والأخرى تدافع، فكانت الحرب هي أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل"[٢].

فالحرب تبقى الهالة الأكثر عنفا وعشوائية وإحاطة بالمجتمع والأكثر تأثيرا اجتماعيا، وهي عبارة عن فوضى اجتماعية تخلق من رحم الموت ثمارا للحب والعشق، دحضا ومقاومة لثيمة الحرب " ولدت ميساء"، "بدأ القصف ينسون أن الحرب تختبأ تحت ضحكة الحياة".

---

(١) حديقة حياة، رواية، لطفية الدليمي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د. ط، ٢٠٠٢م: ٢٧ - ٢٨.

(٢) دراسات عن مقدمة ابن خلدون، ساطع الحصري، الفصل السابع والثلاثون في الحروب ومذاهب الأمم، مؤسسة هنداوي، www.Hindawi.com

فنحن المنهزمون والمنتصرون في آن واحد، هوية الضعف والتشظي بالهوية الوطنية، وهوية القوة الذاتية ونتاج الحب، فالذات قوية مدركة بثقافتها بكل ما يجري على أرضية هشة حطمتها الحروب، تتلاشى فوقها حب الانتماء والمواطنة وبالتالي الهويات.

فالمجتمع الذي لا يملك مؤهلات التحرر من لعنة الحرب لن يستطيع بناء هوية رصينة ومتماسكة.

نلاحظ من خلال هذه النصوص في الروايات أنها ملتصقة بالحدث الاجتماعي والمتغيرات الكثيرة في هذا الإطار ولا سيما ما يخص معيشة الإنسان العراقي وتحركاته وتطلعاته مقابل أزمة الإنسان النفسية، أزمة خوفه واغترابه على مستوى الوعي الوطني وعلى مستوى الوعي الهوياتي، وإنّ هذه الانهيارات في المجتمع العراقي وجدت الشخصيات نفسها أمام اغتراب داخلي.

ب- المجتمع التخييلي:

عندما يجد الإنسان أنه غير قادر على مواجهة الواقع، فإنه يلجأ إلى الأحلام أو إلى الخيال، والانطلاق من هناك لمعالجة مشاكل واقعية، عبر الإشارة أو التلميح أو التنبيه إلى خطورة الوضع العام بطرائق غير مباشرة، فالحديث عن حاكم طاغية في الخيال، هو الحديث عن حاكم طاغية في الواقع لا تستطيع الرواية أن تجهر باسمه وهكذا، والروايات التي تتحدث عن مجتمعات افتراضية، سيكون لها أيضا هويات افتراضية، وهذه الروايات في الغالب تستعمل الرموز والأقنعة، وممكن أن تكون هناك رواية تبدو وكأنها من صميم الواقع ولكنها في حقيقتها هي رواية تخييلية غير حقيقية، على أية حال ما يهمنا هو علاقة المجتمع بالهوية من خلال النماذج الاجتماعية التي طرحتها الروايات.

فرواية (مشروع أومّا)، هي محاولة تخييلية لبناء الإنسان أولا، وذلك وفق مجموعة من القيم التي تطرحها الكاتبة في روايتها، نماذج بشرية منتقاة، نخبة من الناس تحاول أن تبني مجتمعا أشبه بـ(حلم) أو (يوتوبيا) لكنه ليس حلما ولا يوتوبيا، وهو لا يبشر بيوتوبيا خاصة، ولكن المشروع يتبنى الصفاء والنقاء قبل كلِّ شيء، هي مجموعة من الأشخاص تحاول أن تبني وطنها وفق (تفعيل الحب) و(التساند الإنساني)، تسعى إلى النقاء كما قلنا ولا ترضى بالتلوث، تحاول بناء الإنسان عن طريق الأصالة والانتماء إلى الجذور البيض، بعيدا عن أوبئة العصر وأمراضه جميعا، ولعل التصدير الذي استعملته الروائية في بداية روايتها يوحي ويشير ويرمز إلى نوع الرواية والأسباب الإنسانية التي أدت إلى كتابتها:

"**يا الروح العظيمة:**

ساعدينا لنستعيد انسانيتنا.

ساعدينا، واشملينا برأفتك.

إجعلينا سعداء على الأرض.

ساعدينا لنأخذ بأيدي أبنائنا صوب حياة جديدة وعمر مديد.

وهؤلاء أبناء شعبنا، إمنحيهم عقولا كثيرة ليحب أحدهم الآخر.

امنحينا قلوبا لندرك ونستوعب.

..... ساعدينا لنستعيد انسانيتنا

من صلوات الهنود الحمر صلاة قبيلة الداهوك"(١).

لقد ذكرنا هذا التصدير الذي كتبته الروائية في بداية الرواية، لنقول إن الرواية أخذت بشكل أو آخر من هذه الصلوات، ليس عن طريق التناص، بل عن طريق التأثر الواضح بالصلوات من قبل الساردة، أي: أن الفكرة جاءت من هذه الصلوات من خلال" ساعدينا لنستعيد إنسانيتنا" فالمجتمع العراقي أول شيء فقد هو إنسانيته، أولا تكفي فصول الذبح والاغتصاب والسلب والتدمير التي عرفناها من خلال هذه الروايات؟ فمجتمعنا بحاجة أولا إلى استعادة إنسانيته و"اشملينا برأفتك: ألسنا بحاجة للرأفة والرحمة" و"أجعلينا سعداء الأرض أليست السعادة في المجتمع العراقي عبارة عن طائر خرافي هاجر ولن يعود!" و"ساعدينا لنأخذ بأيدي أبنائنا: أليس شبابنا بأمس الحاجة للإرشاد والنصح والتوجيه الصحيح" و"وهؤلاء أبناء شعبنا، إمنحيهم عقولا: أين ذهبت العقول وكيف توحش المجتمع، من يعيد العقول إلى أصحابها؟" و"امنحينا قلوبا لندرك ونستوعب: أين القلوب والضمائر من تمزق مجتمعنا وتدمير البلاد؟"، كل هذا يوحي أن الرواية قالت ما أرادت قوله من خلال هذا التصدير، فهي تريد الإنسانية أولا، وتريد الرأفة، نماذج راقية من الشباب، وقلوب رحيمة، وعقول تفكر وتدبر بالخير، هي الأسس التي إنبنى عليها مشروع اومّا من أجل الحفاظ على الهوية قبل كل شيء، ولكي ندخل داخل المشروع ونفهم آليات تحقيق أحلامه، لابد لنا أن نصغي إلى مجموعة من الهواجس والأفكار والطروحات والرؤى التي تعمل على بناء هذا المشروع وبالوقت نفسه تشكل أساس بنيانه:

- " **قال سائق البلدوزر إن الورثة باعوا أرض السوق..**"(٢).
- "**الموضوع معقد، فقد ظهر تحت الأنقاض جزء من سور تأريخي عليه كتابات مسمارية، واستطاع الشباب ايقاف الهدم بالقوة واضطر أحد الرجال إلى اطلاق عيارات نارية ليوقف العمل، بالإضافة إلى أن المستثمر سينتهك مشروعنا.**"(٣).

---

(١) مشروع أومّا، رواية، لطفية الدليمي، دار المدى، بغداد، ط. ١، ٢٠٢١م: ٥.

(٢) مشروع أومّا: ١٠٠.

(٣) المصدر نفسه:١٠٠.

- **"وهي المشغولة بمشاريعها المستقبلية حول إدارة البلدة بعد الاضطراب الشامل الذي تشظت إثره جغرافية البلاد.."**(١).
- **" قرأت أعدادا لا تحصى من الكتب، شاهدت العديد من الافلام المختارة التي اقترحها عليها عمها عادل، انتشت بالموسيقى الجيدة أيا كان..... لم تفلح كل أفكار الجدة الاستحواذية ورؤيتها التقليدية للحياة أن تخترق تحصينات روحها.. تحدثت عن فكرة تشيع الان في العالم، أطلق عليها المؤمنون بها اسم(المنيماليزم) أي الاكتفاء بالقليل جدا من الأشياء والممتلكات بمعنى التجرد، الزهد، النجاة من شهوك الاستملاك.."**(٢).
- **"لم تهيء نفسها لتكون أنثى متأنقة تلفت أنظار الرجال مثل نساء المدينة، شاءت أن تبقى الفتاة البرية المختلفة التي لا تخضع للمواضعات السائدة حول النساء..."**(٣).
- **"هذه نسخة من مجموعة أفكار وحلول ممكنة لمشكلات بلدنا..... أولى الحلول يتعلق بالطاقة والماء وتوفير الغذاء في حال توقفت امدادات التموين... لا نحبذ مجتمعا يوتوبياً.. وإلا تحولنا إلى نوع من البهائم الحمقاء..لا تستبق الأمور.. حول الاستفادة القصوى تمازج الثقافات البرية والقدرات البشرية الفطرية ومعطيات العلم المتاحة والمعرفة الحرة.. سنحتاج لاكتشاف القدرات وتوظيفها مع ما يتاح لنا من التقنيات المستجدة.. المهم أن نؤمن بأنفسنا ونبدأ فالطوفان قادم لامحالة... السلطة المركزية تهاوت ولا أحد يحمي أحدا.. نحن جميعا مسؤولون عن النهايات الفاجعة.. ربما بتساهلنا في مسألة الكرامة والإنسانية، نحن شركاء في الجريمة.. ها نحن نبدأ وقد ننجو فنجنب أنفسنا اللوم والندم.. لو فكر كل واحد منا بمشروع خلاص فردي ضمن منظومة تعي ما يحصل من تغيرات محلية وعالمية، عندها سننجو حقا.."**(٤) هذا هو إذن" مشروع أوما" أو جزء منه أو خلاصته، وهو يقوم تحت الشروط الآتية:

* على الإنسان أن يفهم نفسه ويفهم ما حوله، ثم يحاول بعد ذلك أن يبني نفسه بناء حكيما قويا رصينا.
* المشروع لا يؤمن باليوتوبيا غير الممكنة؛ لأنها باعتقاده تهجن الإنسان وتفقده شخصيته وتحوله إلى ما يشبه الآلة، أي تسحق روحه وتقتل عنفوانه وحيويته وآماله وطموحاته، ولكن المشروع في حقيقته ليس يوتوبيا خاصة لا يعترف بها أصحابها على أنها يوتوبيا.
* يزعم المشروع أن الطوفان قادم، فلا بدَّ من تهيئة أسباب النجاة من هذا الخطر المحدق.

---

(١) مشروع أومّا: ١٠١.

(٢) المصدر نفسه: ١٠٢.

(٣) المصدر نفسه: ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٤) المصدر نفسه: ١٠٤ – ١٠٥.

* المشروع يؤمن إيمانا مطلقا ب(الإنسان) و(الأرض) و(التأريخ) و(الحرية)، ومن خلال عبارة" إن الورثة باعوا أرض السوق" نصل إلى معنى جديد، وهو أن هناك من يخون قيمَهُ ببيعه (الأرض) التي هي رمز الوجود والوطنية والانتماء الحقيقي للإنسان، ونقصد" العائلة والمجتمع" ومن هنا بدأت الشرارة الأولى في انهيار المجتمعات، فمسألة(شراء أراضي المواطنين من قبل جهة مجهولة أو معلومة هي الخطوة لاستغلال الإنسان واستعباده واستعماره)، وتطرح الرواية بقوة فكرة الحرص على الحضارة والتاريخ، وذلك من خلال" استطاعة الشباب إيقاف الهدم بالقوة"، وعلى الرغم من حرص الشباب على (الحضارة) نجد إن الحكومة لا تهتم لهذا الموضوع: "**اتصل صديقي فيصل بأستاذ آثاري من أقاربه ليبلغ المسؤولين عن اكتشاف بقايا السور....**

- **وهل ستجدون استجابة حكومية؟**
- **لا أتوقع ذلك، أما إذا كان المستثمر محميا من جهة متنفذة، ففي هذه الحالة علينا أن نستعد جميعا لحماية بلدتنا من الهجمة الاستهلاكية البشعة.**"[١].

والمشروع يُنظّر ويهيّئ ويُبشر ويُثقف لظاهرة إنسانية، لها دور خطير في بناء المجتمعات الراقية، وهي (الاكتفاء الذاتي)، هذه الظاهرة التي بإمكانها أن تقضي على الجشع والطمع اللذين ينخران في جسد المجتمع ويدمران بنيته التحتية، فالمجتمع هو في النهاية عبارة عن "عمل منظم بين البشر، أي مجتمع يعيد انتاجه ذاتيا تلقائيا من دون دولة، وهو مصدر شرعية الدولة وهو قادر على مراقبتها وعزلها"[٢]، وهذا التعريف إذا لم يكن مطابقا لـ" مشروع أوما" فإنه مشابه أو مقارب له، فعلى المجتمع أن ينال حريته الشخصية، وهويته، وشخصيته، لكي يكون قادرا على محاسبة أو محاكمة الدولة وسياساتها.

ويمكن توصيف مشروع اومّا بأنه مشروع إنساني بالدرجة الأولى، يبحث عن الحياة الحرة الكريمة، ويحاول بناء مجتمع جديد يقوم على الطبيعة والبراءة والنقاء، ويحافظ على الإنسان ويحترم وجوده، ويعتقد أن الهجمات الاستهلاكية ستستمر إذا لم يتم إيقافها وإفشال نواياها وخططها العدوانية التي تسعى إلى تحويل الإنسان إلى عبد أو آلة أو مجرد رقم لا قيمة له، ومن هنا فإن مشروع اومّا هو المشروع الحقيقي الذي يرى المجتمع مؤهلا لإنتاج أو صناعة (هوية) مثالية، هي رمز القوة والصفاء والنقاء في العالم، على الرغم من التهديدات

---

(١) مشروع أومّا: ١٠١.

(٢) المجتمع المدني دراسة نقدية، عزمي بشارة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط. ٦، ٢٠١٢م: ٩٧.

التي تواجه المشروع باستمرار، وتحاول إفشاله أو تحطيم إنسانيته التي هي أساس كل شيء في المشروع.

وفي رواية (من يرث الفردوس) يوجد مشروع آخر، مشابه في بعض جوانبه لـ(مشروع أوما)، ولكنه ليس المشروع نفسه، فيمكن أن يضيف اليه أن الإنسان قد يبني مشروعا من نوع آخر عن طريق "الحب"، فالمجتمع هو الوعاء التي تُبنى بها الهوية، فجميع مرجعيات الهوية هي في الحقيقة تعمل داخل منظومة المجتمع ومؤثرة فيه، لأن المجتمع "هو رابطة للأفراد بوصفهم أعضاء في عمومية شكلية وذلك بواسطة حاجاتهم، ثم بواسطة النظام الحقوقي بوصفها أداةً للحفاظ على أمن الأفراد وعلى ملكياتهم بوصفه نظاماً مفروضاً، من خارجهم ينظم مصالحهم، والمجتمع هو أساس الدولة والهوية، فهو اللبنة الأساسية في بناء الشعوب والأمم"[1]، وفي مكان يسمى (الحصن)، يظهر مجتمع جديد، لا يؤمن بالأخطاء ويسعى إلى العدل والأمان والحرية، فيأتي كل شخص أو مجموعة من مكان ما، حاملين أحلامهم على ظهور أفكارهم، وهم يأملون العيش في مكان لا تطأه عيون وأقدام الشياطين، يأتي الناس من كل حدب وصوب إلى هذا الحصن، هو ملاذهم الأخير، بعد أن مزقتهم ظلمات العبودية والقيود والخوف والجوع، (كلٌ يبكي على ليلاه)، وضعت الناس ثقتها العمياء بهذا الحصن، فهو حصن الروح والقلب والبراءة والنقاء.

والآن لنتحدث عن الأمل الأول، قبل أن نعود ونتحدث عن خيبة الأمل، وها هو الأمل الأول" **كان يشم أطياف ذلك الفردوس البعيد ويحزر رائحة النعيم وألوان حجارته المجبولة بالدماء العتيقة وعرق المحاربين وزفرات النساء ودموع العاشقات اللائي قارع رجالهن الموت، شمّ كل ذلك قبل أن يهتدي لمعرفة ما لم يعرفه عن الحصن ويتجه نحو ما كان حلما واسما مسطورا في كتب الأسلاف أو الحكايات التي تزحم ذاكرة الناس..... لطالما سمع وقرأ عن (حصن المسهج) في تلك الكتب القديمة وفي حواشي المعاجم ومباحث الجغرافيين والآثاريين، ثم أخذ الاسم يتردد مثل منشور سري أو رقيَة شافية بين أوساط الحالمين بالفردوس الأرضي..**"[2]، يقول هوبز:" إن المجتمع المثالي هو لا نعرفه إلا إذا تصورنا أو تخيلنا مجتمعا لا توجد فيه دولة، وتعم فيه الفوضى والصراع، وحرب الكل ضد الكل، فـ"إن الخروج من هذه الوضعية تستلزم المساواة بين الأفراد والعدل في الواجبات، ويبرمون على ذلك عقدا، ويخضعون بشكل إرادي لشخص معنوي(شخص الدولة) يحكمهم،

(١) إشكالية نشأة مفهوم المجتمع المدني: النشأة– التطور– التجليات، كريم أبو حلاوة، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ١٩٩٨م: ٥٩.

(٢) من يرث الفردوس، لطفية الدليمي، دار المدى، بغداد، ط١، ٢٠١٤م: ١٧ – ١٨.

من أجل تحقيق نظام يقر المساواة بين الأطراف المتعاقدة، ويحقق الانسجام بينهم"[١]، فقد كانت الأحلام والأنظار كلها موجهة إلى الحصن فهو الأمل المنشود والملاذ الأخير، وبما أنه لا تكفي النوايا الطيبة لإنشاء مجتمع مثالي يحقق هوية مثالية: فإن الأمور تبدأ تدريجيا بالظهور على حقيقتها، وأن (فردوس الحصن) مجرد أكذوبة وحلم زائف، طبّل وزمّر وثقّف له أصحاب المصالح الشخصية الخاصة، وأن هذا (الفردوس) ليس إلا جحيما آخر، لا يختلف عن جحيم مدينة مدرارة التي هرب منها العاشقان مزينة وسحبان هروبهما الأول: "**سارا في الاتجاه المعاكس لمدينة" مدرارة" التي فرّا منها فرارهما الأول، وخلّفا وراءهما أطلالاً أم دفاراً وحصن المسهج بمن فيه وما فيه من مباهج خلّب ومصائب وليالي فرح تهاوت وأيام حزن وأسباب قلق تفاقمت بمرور الأعوام.**"[٢] هذه أول إشارة على خيبة أمل المهاجرين إلى (الحصن)، لكن (حصن مسهج) كان في بداية الأمر ملاذا للهاربين من سيوف الظلم، هو المأوى الجميل، الذي لا يعرف التلوث والفساد، شخصيات مختلفة عديدة احتواها " الحصن"، لكل منها سبب وغاية للانتماء إلى هذا المنعزل الأثيري الجميل(العاشقان سحبان ومزينة/نواف النادري: محنط الطيور/السيدة السمراء/مزينة النادري/ الأميرة نجاة/ أياس النادري/مطيع/ دارم/ وهب المليلي/عواد السليم/زكريا/هاجر... الخ)، عدد كبير من الشخصيات التي تحمل خصوصياتها وتناقضها وتآلفها وجنونها وعقلانيتها، هم سكان الحصن، وفجأة تبدأ أولى فصول انهيار الحصن بحادثتين (الأولى: اغتصاب آسيا ابنة زكريا وقتلها من قبل أناس أدعوا أنها انتحرت بقطع شريانها): "**قال إياس: هذا نذير شؤم أول حادث انتحار في الحصن، وتساءل قمران مرتابا: ألا يكون هذا قتلا مموها بصورة انتحار؟. قال إياس: كلا، اقتربت الفتاة من الجنون في الأيام الأخيرة، كان يجب أن نحتجزها لكي نمنع الكارثة. قال وهب: لم تكن تملك ما تدفع به السوء عن نفسها وعندما يئست من كل شيء، عندها آثرت الرحيل عنها**"[٣].

والحادثة الثانية هي السيل الذي غطى على كل شيء (وهو دخول السوق إلى الحصن)، فالحصن هو رمز قبل كل شيء يمثل النقاء ضد التلوث، والبراءة، ضد الجشع والاستغلال، والعدالة ضد الظلم والعدوان، والسلام والهدوء ضد الحروب والضجيج، وله مميزات أخرى، جعلته ملاذا آمنا لأصناف وأشكال من البشر جاؤوه من كل مكان: "**كنتم**

(١) المجتمع المدني (دراسة نقدية): ١٠٠.

(٢) من يرث الفردوس: ١٢.

(٣) المصدر نفسه: ١٩٧.

تهزأون بي وتواصلون المضي في الأخطاء نفسها، فردوس للقمع والاغتصاب وتناهب اللذات وتدمير النفوس، من لا يجن؟..

كلنا صرنا مجموعة من المجانين، إنني أرى يا إياس أسوار الحصن تتصدع وسرعان ما سينهار كل شيء بنيناه فوق رؤوسنا.."[1]، إذن هذه هي أولى بوادر العاصفة التي ستقتلع أركان الحصن: "**اسمع يا سحبان، سأطلعك على حقيقة الأمر، إن من ينوون اكتساح الحصن مجموعة من المستثمرين الذين يريدون القيام بنشاط سياحي، يحضرون مجموعات سياحية لزيارة الحصن والتفرج على نمط العيش فيه.**

قال سحبان: يحولوننا إلى دُمى للعرض.. وسيقدمون جزءا من الارباح لنا، تأتي مجموعتان كل أسبوع ونكون مستعدين لعرض أنفسنا!!... يتساومون علينا وكأننا سلع للبيع..."[2].

كان سكان الحصن القادمون من شتى أصقاع البلاد، لا يفكرون بشيء مثلما يفكرون بحاجتهم إلى هوية تجمعهم في مجتمع جديد متوحد، قد يتخذونه وطنا في المستقبل، لكنّ البشر المصابين بالجنون والعقد النفسية والجشع والاطماع، لا يرضون أن يروا مجتمعا مثاليا يرفل بـ هوية ناصعة البياض، شديدة النقاء، هوية البراءة والأصالة، لذلك تمكنوا من تمزيق مجتمع الحصن، ولوثوا براءته بسوقهم الذي يرمز إلى الغزو والاعتداء والاحتلال والتدمير.

عند متابعة روايات لطفية الدليمي نجد أنها مختلفة الرؤى في مواجهة الواقع والتصدي لكل صراعاته ونزاعاته السياسية والاجتماعية على اعتبار أن أحدهما مؤثر في الآخر بطريقة طردية، والتباين في اتجاهات المجتمع وقيمه وأخلاقياته وكلها كُتبت خارج العراق لكن مع عمق التجربة ودراية بالغة ومفصلة إلى ما فعلته الهويات المفترسة التي مثلت الأغلبية من المجتمع، إذ حوّل المشروع السياسي جماعات من النسيج الاجتماعي إلى أعداء، ويعد محركا فاعلا لانشطار الهوية الوطنية، فالسياسة أصبحت الثقل المركزي في توجيه الهوية في المجتمع العراقي.

(١) من يرث الفردوس: ١٩٨.

(٢) المصدر نفسه: ٢٢٠.

الخاتمة

تمثل المرجعيات الاجتماعية الارضية التي تتشابك من خلالها الظروف والصراعات بين المجتمع والانظمة السياسية ،وان الطبقة الاجتماعية المستهدفة في هوياتها هي الطبقة المثقفة والتي تمثل الطبقة الوسطى التي تكون دائما ضحية الفوضى والقتل مما يجعلها متشظية الذوات والهويات ،ومن خلال هذه الدراسة نلاحظ ان اغلب شخصيات الكاتبة لطفية الدليمي مرتبطة بسؤال الهوية بوصفه رهانا سرديا ، يراد منه الكشف عن الانتماء الذي يتبعثر متشظيا.

ثبت المصادر

- إشكالية نشأة مفهوم المجتمع المدني: النشأة– التطور – التجليات، كريم أبو حلاوة، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ١٩٩٨م.
- الجماعات المتخيلة، بندكت أندرسن، تر: ثائر ديب، تقديم: عزمي بشارة، شركة قدمس للنشر والتوزيع، سورية، ط. ١، ٢٠٠٩م.
- حديقة حياة، رواية، لطفية الدليمي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د. ط، ٢٠٠٢م.
- خسوف برهان الكتبي، لطفية الدليمي، نوفيلا، بغداد، د. ط، ١٩٩٩م.
- دراسات عن مقدمة ابن خلدون، ساطع الحصري، الفصل السابع والثلاثون في الحروب ومذاهب الأمم، مؤسسة هنداوي، www.Hindawi.com
- دراسات في حضارة الاسلام، هاملتون جب، المحقق: د. احسان عباس، الناشر دار العلم للملايين، بيروت، د. ط، ١٩٧٩م.
- الديمقراطية المصرية على مشارف القرن القادم، أحمد ثابت، كتاب المحروسة، مركز المحروسة للبحوث والتدريب، القاهرة، ط. ١، ١٩٩٩م.
- الدين في المجتمع العربي، مجموعة مؤلفين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، د.ط، ٢٠٠٠م.
- سيدات زحل، لطفية الدليمي، دار المدى، بغداد، ط. ١، ٢٠١٧م.
- عشاق وفونوغراف وأزمنة، رواية، لطفية الدليمي، دار المدى، بغداد، ٢٠١٦م.
- علم الاجتماع السياسي، أسس وأبعاده، صادق الأسود، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، العراق، د. ط، ١٩٨٦م.
- علم الاجتماع، أنتوني غدنز، تر: فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، مؤسسة ترجمان، بيروت، ط. ٤. ٢٠٠٥م.
- العنف السياسي في السرد القصصي، عبد جاسم الساعدي، دار فضاءات، عمان، ط١، ٢٠١٣م.
- الكتابة والمنفى، أدونيس وآخرون، تحرير وتقديم: عبدالله إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠١٢.
- المجتمع الافتراضي في مقابل المجتمع المحلي الواقعي، أسماء العشاب، دنيا الوطن، https://pulpit.alwatanvoice.com/content/print/183122.html
- المجتمع البشري في الاخلاق والسياسة، برتراند رسل، تر: عبد الكريم أحمد، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، د. ط، د. ت.

- المجتمع المدني دراسة نقدية، عزمي بشارة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط. ٦، ٢٠١٢م.
- محاضرات عن دراسات في المجتمع العراقي، د. زينب هاشم، الجامعة المستنصرية، كلية التربية الأساسية، قسم الارشاد النفسي والتوجيه التربوي، بغداد، ١٤٣٥ هـ -٢٠١٤م.
- مشروع أومّا، رواية، لطفية الدليمي، دار المدى، بغداد، ط. ١، ٢٠٢١م.
- مفاهيم العقل العربي، علي القاسمي، دار الثقافة والنشر والتوزيع، د. مك، د. ط، ٢٠٠٤م.
- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق: المستشرق الفرنسي: أ. م. كاتر مير، عن طبعة فرنسا، ١٨٥٨، مكتبة لبنان، بيروت، د.ط، د. ت.
- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين)، طه باقر، ج١، الوراق للنشر المحدود، بغداد، ط٢، ٢٠١٢.
- من يرث الفردوس، لطفية الدليمي، دار المدى، بغداد، ط. ١، ٢٠١٤م.